



الترسيم المضاد

عينات منوف

ترجمه من العبرية : رواء بقاعي

عينات منوف، عمر الغباري ، مَتان بورد، إيتن برونشطين، أمير هَلل، عصمت شبيطة، فادي شبيطة، فتحة شبيطة، طال هران، ماشه زوسمان، آدم فريمان، فرود تسين، كليز أورن، رلى عواد - رافرتي

للاطلاع

مجلة النكبة التي لم تنته

نحو عودة اللاجئين فلسطينيين

العدد ٦، أيار ٢٠١١





← كيف ستبدو العودة؟ كم عدد الوحدات السكنية التي سَتبنى؟ كيف سيبدو المشهد الإسرائيلي-اللسطيني المشترك؟ كيف سيتم تقسيم الأراضي للصناعة والزراعة؟ وأي بنى تحتية سيُخطط لها للمدن والقرى؟ وعلى أيِّ ركائز سيرتكز هذا المشهد؟

لقد تمت مناقشة هذه الأسئلة وغيرها ضمن الحلقة الدراسية التي حملت عنوان «الترسيم المُضاد: التفكير بالعودة»، والتي انعقدت في جمعية زوخروت في صيف ٢٠١٠. وقد اشترك في هذه الحلقة الدراسية نشطاء - متطوعون في جمعية زوخروت- يهود و فلسطينيون من مواطني إسرائيل، وممثلون عن إدارة الجمعية، بالإضافة الى مندوبين ومندوبات من «لجنة مهجري مسكة»، والذين يقيمون حالياً في مدينة الطيرة. لقد بحثنا في هذه الحلقة الدراسية مختلف القضايا المتعلقة بعودة اللاجئين والمهجرين، ومن ثم، صِغنا أفكاراً ذات صلة، عبر تخيلها ضمن الحيز، بهدف صياغة المخططات ووضع جملة من السيناريوهات الحيزية المحتملة للعودة. لقد عرّفت مجموعة «الترسيم المُضاد» جملة المُسلّمات التي تنطلق منها الحلقة الدراسية، وتطّرت إلى المشاكل الناجمة عنها، كما صاغت التساؤلات وعنوانت الأهداف المشتركة للمجموعة. لقد سعينا، سوياً، إلى رسم طريق للعودة إلى قرية مسكة وإلى الحيز المُحيط بها: إنها قرية مُحيّت من الخرائط في أعقاب الحالات المستمرة في التهجير، الطرد والتدمير، ولكنها ظلت قائمة ضمن المشهد، خصوصاً في وجدان مهجري مسكة، كما ظلت تعلقو في ذاكرة المواطنين اليهود القدامى في هذه المنطقة.

الترسيم المضاد (counter-mapping)، هو اسم شامل لأساليب عمل مع خرائط بمشاركة السكان. كما يستخدم الباحثون والحركات الاجتماعية الخرائط (ليس بالضرورة حسب تعريفها التقليدي كخريطة فقط) بغية الربط بين السكان والمعرفة والتطبيقات البيئية؛ كوسيلة

للمفاوضات بين السكان وبين هيئات خارجية (مثل هيئات التخطيط، والهيئات الحكومية والاقتصادية)؛ وكألية توثيقية تربط بين الحيز المكاني والثقافة والزمن؛ كما تستخدم بهدف تطوير مخططات بناء إقليمية لتجمعات سكانية مختلفة. كما تم استخدام طريقة الترسيم المُضاد، في حالات أقل شيوعاً، ضمن مفاوضات تم إجراؤها لترسيم الحدود والتقسيمات بين المناطق (Fox, ١٩٩٨; Peluso, ١٩٩٥; Wainwright & Bryan, ٢٠٠٩). إن نقطة الانطلاق في كل ما ورد أعلاه، هي في كون الخريطة وسيلة فعّالة لإثبات الحضور الحيزي، ولهذا، يمكن توظيفها في نضال التجمعات السكانية من أجل أراضيها وحقوقها.

لقد استُلهمت عملية الترسيم المُضاد من عدد من المنهجيات البحثية المُعاصرة في العلوم الاجتماعية (وأساساً من، البحث التشاركي الموجه للفعل الاجتماعي - Participatory Action Research).^١ إنها عملية مرتبطة بنمو حركات اجتماعية ميدانية يكون الموقع هو قاعدتها المشتركة (place-based social movements) تسعى منه لتحقيق العدالة البيئية - الاجتماعية. كما ترتبط أيضاً بالثورة الاجتماعية التي حدثت في سنوات السبعين في مجال الجغرافيا حيث دفعتها باتجاه خطاب راديكالي - نقدي. وكجزء من هذه العملية، تمّ تطوير ما يُطلق عليه «علم الخرائط النقدي»: وهو التفكير النقدي بمنهجيات الترسيم نفسها، والتي يعود أصلها إلى الأنظمة الممثلة للقوة؛ فالخرائط لا تعكس المعرفة الجغرافية - الحيزية فحسب، وإنما تمتد لتعكس أيضاً جملة من القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية. وبفعل الانتشار الواسع نسبياً لهذا المجال، برزت الأهمية القصوى لتيسير عملية ترسيم الخرائط بواسطة تطوير وسائل تكنولوجية للترسيم وتحديد المكان (GPS: Global Positioning System)، والترسيم عبر الانترنت (web mapping)، وصور الأقمار الصناعية، المتوفرة للمستخدم عن طريق برنامج

١ «البحث التشاركي الموجه للفعل الاجتماعي» (PAR) هو اسم شامل لعدد من المنهجيات البحثية التي تم تطويرها منذ سنوات السبعين بالهام من كورت ليفين (١٩٩٠-١٩٤٧)، المؤسس لعلم النفس الاجتماعي. ويرتكز على ضرورة إجراء البحوث الخاصة بالعلوم الاجتماعية والتي تهدف إلى التغيير الاجتماعي، وذلك بالتعاون مع التجمعات السكانية ومندوبيها بغية تحقيق التغيير الاجتماعي-السياسي. وتهدف هذه المنهجية إلى إلغاء الفصل بين «الباحث» و«المبحوث» لتدعيم البحث باحتياجات العامة ومعرفة الباحثين والمشاركين به.



فليحضروا رزم "أهلاً وسهلاً" للعائدين.



وبدلاً من أن يحضّر الأولاد رزماً للجنود،



كلير: بدلاً من أن نرى بهذا تهديداً ديموغرافياً، علينا أن نراه فرصة.

”Google Earth“. إن مثل هذه الوسائل التكنولوجية تصادِر “النظرة الفوقية” للمتخصصين ذوي السلطة: المخططين والجيش والحكومة، وتتيح لقطاع واسع من الناس الاطلاع على هذه الخرائط وفهمها، وتصميم الحيز من خلالها. (Wood, ٢٠٠٣; Perkins, ٢٠٠٦; Crampton & Krygier, ٢٠٠٦). (١٩٩٢).

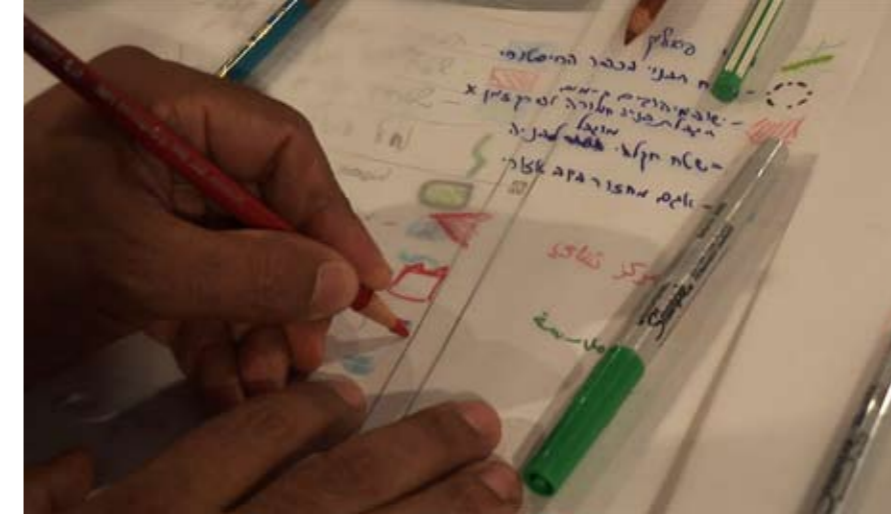
في الحلقة الدراسية “الترسيم المُضاد: التفكير بالعودة”، اقترحنا الترسيم المُضاد كاستراتيجية عمل جدّلية، تعترف، من جهة، بوظيفة الخرائط الرسمية كوكيلة للسلطة والمعرفة وكممثلة لسياسة الحاكم، تسعى إلى إعادة إنتاج الوضع القائم وتعزيزه، ومن جهة أخرى تتمرد على هذه الوظيفة. يستخدم الترسيم المضاد أساليب التمثيل (والانتاج) في الحيز الرسمي - يتدخل فيه وينتقده- بغية

هذا المقال هو جزء من بحث لأطروحة الدكتوراة التي قدمتها بموضوع مشاركة الجمهور في إنتاج وتمثيل الخيال السياسي الحيزي. أود أن أقدم بالشكر إلى جاري وينكل وروجر هارت وسيندي كاتس من قسم علم النفس البيئي في جامعة مدينة نيو يورك على توجيههم ودعمهم لي خلال البحث. وكذلك أقدم بالشكر إلى كل من: درور ك. ليفي، داليه تيسلر، كرملة يعقوبي فولك، وإيتمار منوف على مساهمتهم الهامة في أسلوب الكتابة وترتيب الأفكار وفي بناء ورشة العمل.

يتعمق ديفيد هارفي في هذا المجال (Harvey, ٢٠٠٥). ديفيد هارفي، وهو منظرٌ وجغرافي اجتماعي ذو توجه ماركسي، يدعي بأن قوة التخيّل الجغرافي تتيح توسيع "قوة التخيّل الاجتماعي" (وهو مفهوم صاغه عالم الاجتماع رايت ميلس Wright Mills) نحو "الوعي المكاني". ومن خلال قوة التخيّل الجغرافي، تصبح الفرصة متاحة للخوض في نقاشات حول الهوية والمكان والأرض، حيث يتم ربطها جميعاً بعمليات مادية. بالإضافة إلى ذلك، تتحرك قوة التخيّل الجغرافي بين الماضي والمستقبل: وهنا يتم تفعيل مفهوم "الزمن الماركسي" (Lefebvre, [١٩٧٤] ١٩٩١)، الذي يقوم



رسم خرائط باعتبارها أجهزة نقدية تدعو إلى قراءة مجدّدة. واستهدفت قراءةنا المجدّدة لخرائط مسكّة طرح سيرورات الإقصاء والمحو، وفحص العلاقة بين الإقليم والهوية من خلال فكرة العودة، ووضع الأمور مجدداً - «على الخريطة». ان الترسيم المضاد هو أيضاً جزء من ممارسة مقاومة: باعتباره عملاً ينتج خرائط جديدة، تعتبر بدورها بدائل للخرائط القائمة- ووثائق يقصد منها تعزيز أهداف اجتماعية وسياسية.



مُرحلة متأخرة يمكن لهذا الأمر أن يحدث تلقائياً.



سوف ترى،



لا يجب علينا أن نعلن عن المكان كمكان عربي - يهودي.



فادي: في المرحلة الأولى لا.



أمير: قل لي، اليهود يمكنهم السكن في مسكّة؟



فادي: سنبني شوارع مركز البلد من أحجار القرية المهدامة.

بتحميل الحيز المادي بروايات من ذاكرة غير كرونولوجية (متسلسلة زمنياً)، ذاكرة زمن ومكان غارقين بسيرورات قائمة، وتنشئ - هذه الذاكرة - الخطوات المستقبلية التي ستبني الحيز. هو ذات الأمر بالنسبة للعودة كفكرة - كفعل يتحرك على محور ليس متسلسلاً زمنياً (كرونولوجي) بين حيز تاريخي حقيقي وبين إمكانية للعودة إلى مكان مستقبلي. في هذه الحلقة الدراسية، اقترحنا التخلي في الوقت الراهن عن التعاطي المُجرّد بالعودة، وبدلاً من ذلك التركيز على محاولة إجراء بحث معمّق في الخرائط التاريخية وفي هيئة الحيز الحالي- بغية إنتاج خطة عمل ملموسة ومميّزة للعودة إلى منطقة مسكّة. لم نقصد هنا تبسيط الأفكار السياسية المعقدة، وإنما حاولنا تجسيد آفاق متعددة ضمن هذا المشهد، وفحص إمكانية إنتاج حيزٍ مستقبلي مشترك عن طريق التخيّل البصري-الخريطة- وقوة التخيّل الحيزي-السياسي.^٢

كيف تساهم الخرائط في التفكير بالعودة؟

لقد أثبت الواقع بأن حق العودة، باعتباره فكرة مبدئية وليس خطة عمل ملموسة، ينتج ردود فعل من الغضب والعنف والخوف- خوف ناجم في الكثير من الأحيان عن انعدام القدرة على تخيّل النتيجة الفعلية للعودة والإمكانات الكامنة فيها. وهنا، فإنني أدعي أن انعدام هذه القدرة مربوط بغياب «قوة التخيّل الجغرافي»، أي عدم القدرة على التفكير في الحيز المادي، بأبعاده ومبناه وبالديناميكية الاجتماعية التي ستحصل فيه بحالة حدوث العودة. في مقاله بعنوان «التخيّل الاجتماعي والجغرافي» «The Sociological and Geographical Imagination»،



ترمي الى إنتاج حيِّزٍ مشترك، يدور حول الحياة اليومية للفرد ضمن تجمعه السكاني، وحول المسكن والعمل وحول الحركة ضمن الحيِّز. ومن شأن كل هذه النقاشات أن تشكل قاعدة أساسية للتفاهات والإجراءات على المستوى الأوسع.

خلال الأيام الثلاثة للحلقة الدراسية، أجرينا سلسلة تجارب ترسيم خرائط للاهتداء إلى الزمان والمكان، شملت استعراض الخرائط التاريخية للمنطقة ورسم "خريطة ذهنية"



بكل الأحوال، فقط من عاد بشكل فعلي سيحصل على بيت.



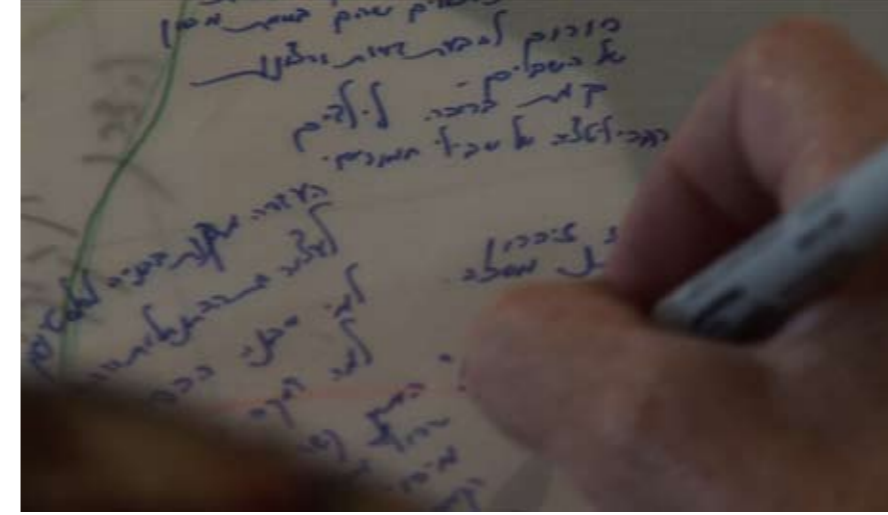
من الخارج تكون كلها متشابهة، في الداخل يصمم كل شخص كما يريد.



عممت: سبني المنازل بطريقة "ابن بيتك".

(mental mapping) خاصة لكل فرد من أعضاء المجموعة، بهدف إنتاج قاعدة جمعية لذاكرة المجموعة. وبعد ذلك، تم تقسيم المجموعة الى طواقم عمل لتخطيط الحيِّز الحالي والحيِّز المستقبلي: الحركة والارتباطات ضمن الحيِّز (تطوير بنية تحتية واسعة تتيح الحركة والتواصل بين التجمعات السكانية وبين الموقع في الحيِّز العام)، الحفاظ على ما تبقى من القرية التاريخية واستعادته، الإسكان، الزراعة والصناعة. في كل مرحلة من مراحل التخطيط، توقفنا لنقاش انعكاسي يفحص اللغة وكيفية العرض والمسلمات والأسئلة الإضافية التي طرحت. لقد استخدم طواقم التخطيط طبقات معرفة متعددة، وبخرائط وبرامج بغية إجراء مفاوضات تخيلية للأجهزة السائدة في الحيِّز، ونقدها.

لقد كان السؤال الجوهرى الذي وجَّهناه: "كيف ستترجم عودة اللاجئين في الحيِّز المادي؟".



وهنا نفتح حيِّزاً جديلاً آخر بين الموضوع وصورته. إن هذا الحيِّز يقود الى طرح النقاش بشأن مشاركة النظم الممثلة للقوة (والتي تتمثل، أيضاً، في رسم الخرائط) في إنتاج حيِّز احتلاي، حيِّز قطبي من الناحية القومية، الاجتماعية والمادية، يتعلق بتجذير منطق السوق بحسب الرأسمالية اللاحقة. من خلال عدم إبراز الفوارق بين الخريطة كموضوع وبين ترسيمها كصيرورة للموضوع، وبأخذ العملية السياسية في كلا الحالتين بعين الاعتبار، فإننا نتحدى منهجية التمثيل ذاتها، كما نتحدى الحقائق المنشقة عنها، وذلك من خلال إجراء نقدي يقوم على فصل بين التمثيل والانتاج، وعليه، نتيح إذن الامكانية لتوسيع قوة التخيل السياسي الجماعي.

واستعداداً لذلك، فقد بلورنا عدداً من المُسلِّمات:

١. إن الخرائط واختبارات الترسيم هي تجربة تمثل أعضاء هذه المجموعة فقط (وبذلك، فإننا لا ندعي تمثيل مهجري قرية مسكة في الشتات الفلسطيني ومخيمات اللاجئين. وفي ذات الوقت، فإننا لا ندعي بأننا نمثل آراء المجتمع الإسرائيلي-اليهودي).
٢. إننا نخطط لعودة كاملة للاجئين والمهجرين.
٣. إننا لا نعلم إلى بلورة خطط لهدم ما هو قائم، أو لإعادة الوضع إلى سابق عهده. بمعنى،



يجب أن تتوفر جاهزية وليونة بالتعامل مع الخطط والخرائط.



لكن حينها كيف يمكنها أن تكون ذات نتيجة؟



رُلى: الغضب موجود، وهذا ليس عدلاً أن تقول "لا تغضب".

"لن نهدم أي بيت". ولهذا، فقد فحصنا صورة جوية للمنطقة كما هي عليه اليوم، ورأينا أن قرية مسكة هي حالة دراسية "مريحة"، خصوصاً وأن موشاف مشمورت وموشاف سُدّه فربورج وكيبوتس رماث هكوبش قد أقيمت على أراضي مسكة الزراعية وذلك بعد تدمير غالبية بيوت القرية، كما تم زرع غابة من أشجار الكينا في مركز القرية (حيث كانت البيوت).

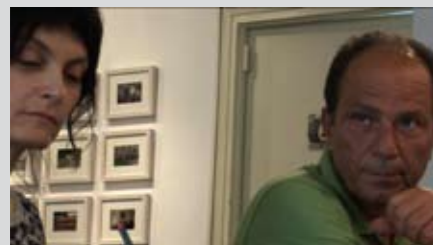
٤. إننا نقرُّ بأن التفكير بالعودة في أبعادها المحلية لا يمكن أن يتم بمنأى عن التفكير بالمستوى السياسي العام؛ ومع ذلك، فإننا نفترض بأن النقاش في الأبعاد المحلية يعكس أيضاً، بصورة مصغرة، النقاش الأوسع حول مبادئ الهوية والقوة. كما يتيح لنا النقاش حول حيِّز مُحاط بحدود محلية، وليس بحدود دولة سيادية، التفكير بجوانب أكثر عملية

أما الإجابة عليه، فكانت بالقيام بفعالية داخل الحيز العملي لليوتوبيا، نظرة إلى المستقبل بغية إنشاء حيز خطابي للتغيير في الحاضر، من منطلق استراتيجية حركة في الحيز والزمن تناهض الفصل وسياسات الاحتلال المتواصلة. ومن ثم، بلورنا برنامجاً حيزياً للعودة، وفكرنا في كيفية رسم الأفكار على الخرائط الجديدة التي أنشأناها. لقد ارتكزنا في التخطيط على بناء حيز مختلط وقابل للتغيير. إن الخرائط التي رسمناها تعكس جملة من السيناريوهات الممكنة ضمن الحيز، ونماذج بديلة لتخطيط الحيز المشترك، تتيح تطبيق العودة إلى قرية مسكة ومحيطها. لقد كان مصدر الأفكار والخرائط والأسئلة التي طرحت هو عمق فكري ومعرفة تشاركية، لا يمكن أن ينبعا إلا من حوار حساس للحيز والمصير المشتركين. يقولون إن الصورة تساوي ألف كلمة. ولهذا الموضوع، كلنا أمل بأن تساوي الخريطة أكثر من ذلك.



المراجع

- Schuurman, N. (2009). The new Brave New World: geography, GIS and the emergence of ubiquitous mapping and data (An interview with Michael Goodchild). Environment and Planning D: Society and Space , 27, 571-580.
- Wainwright, J., & Bryan, J. (2009). Cartography, Territory, Property: Postcolonial Reflections on Indigenous Counter-Mapping in Nicaragua and Belize. Cultural Geographies , 16, 153-178.
- Wood, D. (1992). The Power of Maps . New York: Guilford Press.
- مجلة بلوك (بالعبرية)، العدد ٣، "Y Utopia?". شتاء ٢٠٠٦.
- Crampton, J. W. (2001). Maps as Social Constructions: Power, Communication and Visualization. Progress in Human Geography , 25, pp. 235-52.
- Crampton, J., & Krygier, J. (2006). An Introduction to Critical Cartography. ACME: An International E-Journal for Critical Geographies , 4 (1), 11-33.
- Fox, J. (1998). Mapping the Commons: The Social Context of Spatial Information Technologies. Common Property Resource Digest , 45.
- Harley, J. B. (1989). Deconstructing the Map. Cartographia , 26 (2 Summer), 1-20.
- Harvey, D. (2005). The Sociological and Geographical Imagination. International Journal of Politics, Culture and Society , 18, 211-255.
- Lefebvre, H. (1991 the English edition [1974]). The Production of Space (Chapter 1). (D. Nicholson-Smith, Trans.) Malden, MA, USA: Blackwell Publishing.
- Peluso, N. (1995). Whose Woods Are These? Counter Mapping Forest Territories in Kalimantan, Indonesia. Antipode , 27 (4), 383-406.
- Perkins, C. (2003). Cartography: Mapping Theory. Progress in Human Geography , 27 (3), 341-351.



بينما تبقى حازمة وفعالة



وهي لا تكرر نفس الخطاب الموجود



ماشه: يجب أن يكون تفكيرنا كيف تصيح عملية العودة استراتيجية



متان: أنت مصرّ للرجوع إلى المصطلحات الصهيونية.



فادي: مثل "بازل".



متان: أنا أتخيل خيمة كبيرة يدخل إليها لاجئو مسكة من كل العالم ومن البلاد، يعقد فيها اجتماع تأسيس مسكة من جديد.

مفتاح:

وادي فالق



إعادة إعمار ومحافظه على مسطح بناء القرية الأصلي



تبيين بلدات يهودية قائمة، تشمل تحديد صامم للبناء فيها لفترة زمنية تقرر فيما بعد



منطقة زراعية، البناء فيها محدود للغاية



بحيرة قطرية لتكرير مياه الصرف الصحي



مدخل رئيسي للقرية - منطقة تجارية / سياحية / صناعة خفيفة



طرق رئيسية / تجارة / ثقافة



مؤسسات ثقافية جديدة لخدمة المنطقة



إعادة إعمار مؤسسات تربوية وثقافية تابعة للقرية الأصلية



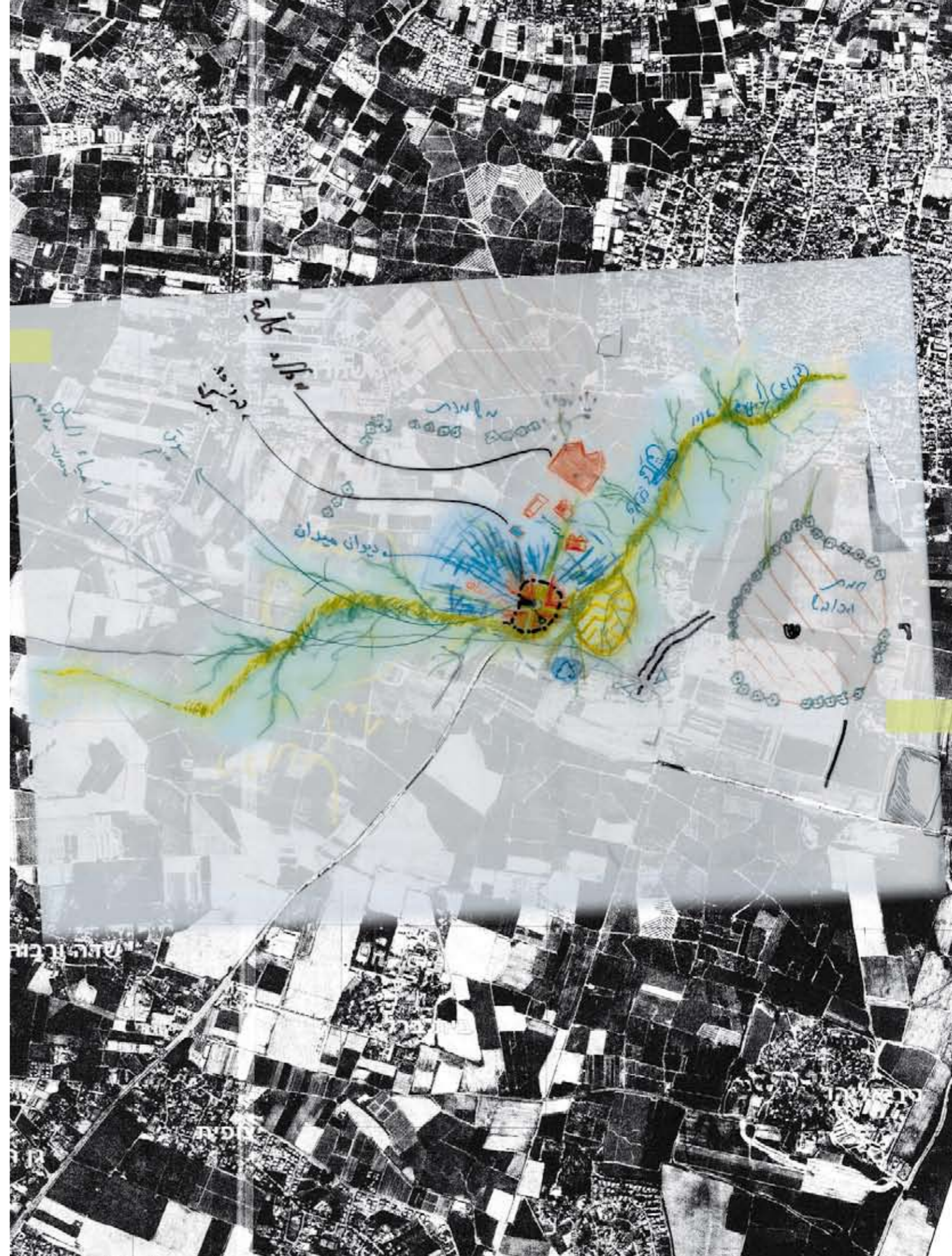
مؤسسات تعليمية جديدة لخدمة المنطقة



مؤسسات دينية (مسجد)



مسكن





سِدق - مجلة النكبة التي لم تنته، العدد ٦، أيار ٢٠١١
نحو عودة لاجئين فلسطينيين

هيئة التحرير: عوفر كهانا، أسنات بار- أور، أيوب أعمار، نورمه موسي، إيتن برونشطين،
تومر جردي، عمر الغباري
المحرر: تومر جردي
تصميم: عوفر كهانا وأسنان بار- أور، فرهسيه
إصدار: جمعية "زوخروت" (ذاكرات)
تحرير لغوي وتنقيح: عمر الغباري

الناشران: فرهسيه، زوخروت

